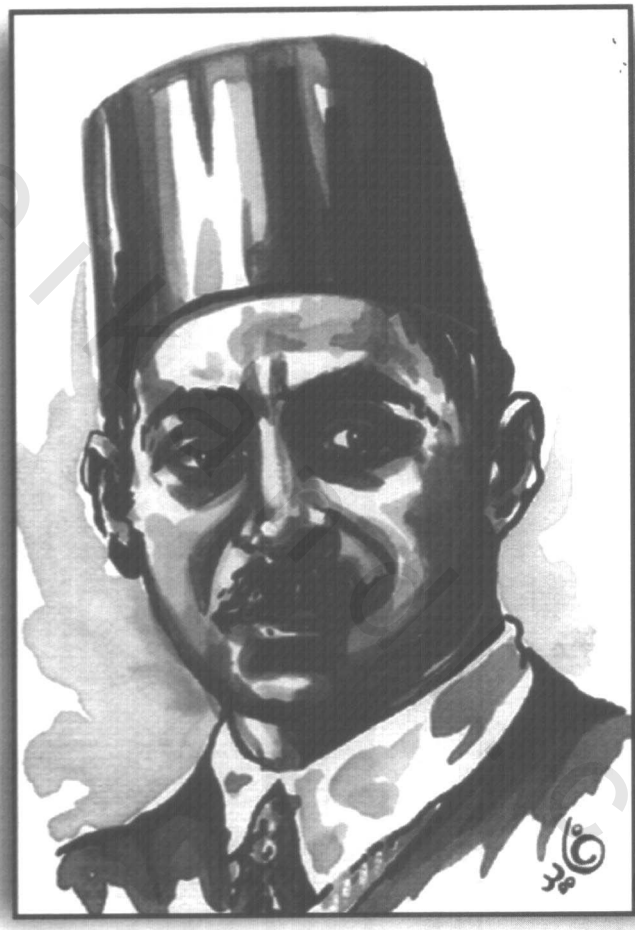

■ مصطفى صادق الرافعى ■

مؤرخ إعجاز القرآن والبلاغة المحمدية

obeikandl.com

لابد وأن نعترف ـ هنا ـ بحقيقة واضحة مؤداها.. أنه إذا كان لظروف النشأة الاجتماعية دخلٌ فى التكوين الفكرى والوجدانى للمفكر أو الأديب، لأصبح كاتبنا الراحل مصطفى صادق الرافعى فى مقدمة الكاتبين بالعربية تأكيداً وتحقيقًا ومثالاً لهذه الحقيقة.

ففى كل ما كتب الرافعى نتبين اهتمامين واضحين، أولهما: التفكير فى العقيدة الإسلامية كاطار، وثانيهما: التناول العربى البليغ كأسلوب.

وهذا الاهتمام بالعقيدة الإسلامية كإطار، والتناول العربى البليغ كأسلوب، جعل بعض الذين لا يتعاطفون مع الرافعى وفكره، يربطون بينه وبين أديب العربية وكاتبها الخالد عمرو بن بحر الجاحظ، الذى ولد ومات بالبصرة فى الفترة ما بين (٧٧٥ ـ ٨٦٨م) ربطًا قد يسىء إلى كاتبنا المعاصر رحمه الله.

صحيح أن هناك أوجه للشبه بين الأديبين الكبيرين على الرغم من تباعد الأزمنة بين عصريهما. هناك شبه فى الأسلوب من حيث البلاغة العربية العالية وشبه فى المزاج من حيث التفنن فى النقد والسخرية، وشبه فى الإلمام الواسع بعلوم العربية، إلى جانب ذلك الشبه الكبير بين الأديبين فى الغيرة المشبوبة على كل ما هو عربى وإسلامى فى تراثنا الخالد.

إلا أن أوجه الشبه ـ هذه بين «الجاحظ» و «الرافعى» لا تجعل القارئ غير منصف أحيانًا، فيحكم على أن الرافعى ـ وقد جاء بعد الجاحظ بمئات السنين ـ نسخة طبق الأصل للجاحظ أو مقلدًا له فى كتاباته.. ذلك لأن كاتبنا المعاصر الرافعى لو كان قد أقدم على هذه المحاكاة أو ذلك التقليد.. مرغمًا أو مختاراً..

لما أصبح أدبه وفكره مدرسةً قائمةً بذاتها. ولما أصبحت كتاباته الأدبية أو الفكرية تختلف فى عمومياتها إن لم يكن فى تفصيلاتها ومفرداتها عن كتابات الجاحظ.

ومن هنا حق للرافعى علينا إنصافًا لأدبه ولفكره القول: بأنه إذا كان هناك أوجه للشبه، فذلك لأن المنبع الذى استقى منه الأديبين الكبيرين كان واحدًا، وهو القرآن الكريم فكرًا وأسلوبًا. فقد أتيح للأديبين الكبيرين تحقق ذلك، لما أوتيا من ذكاء فطرى، وأفق متسع، وقدرة على الاستيعاب.. أن يتذوقا ما فى هذا الكتاب المبين من بلاغة معجزة، وفكر ثاقب، ويحيطان بروعة بيان الرحمن سبحانه وتعالى، وتدبر معانى كلماته الكريمة التى لا يضاهيها بيان إنسان.

ولذلك نرى أن بعض مؤرخى الرافعى وناقدى أدبه يندهشون لأمرين، أولهما: فرض هذا الشبه دون تحفظ، وثانيهما: الإعجاب بالجاحظ والهيام بأدبه وفكره، والتقصير إن لم يكن البخل على مصطفى صادق الرافعى ببعض من هذا الإعجاب دون مبرر، بحجة أن الرافعى كاتب محافظ أو مقلد أو معقد الأسلوب، إلى درجة أن الفكرة عنده ملفوفة برداء من الغموض تحجبها عن القارئ، وهذه الملاحظة قد استوقفت الكثيرين، وفى مقدمتهم الكاتب العراقى الأستاذ حارث طه الراوى، فأشار إليها فى صدد الحديث عن حياة الرافعى فى مقاله بمجلة العربى[1].

ولعل سر إعراض بعض النقاد عن أدب وفكر الرافعى وحشره مع المقلدين الفحول فى الأدب العربى حينًا، ومحافظًا من غلاة المحافظين حينًا آخر، يكمن فى القول المأثور: «الناس أعداء ما جهلوا»، فالذى يجهل أسلوب القرآن الكريم وبيانه الحكيم، لا يتذوق أسلوب الرافعى الذى اهتدى بهدى هذا الكتاب المبين، والذى يتجاهل ـ بقصد أو بغير قصد ـ جوانب البلاغة العربية الأصيلة.. من المؤكد سوف يجد صعوبة على فهم أدب الرافعى وفكره الذى تأثر بهذه البلاغة العربية فى نشأتها وارتقائها وازدهارها.. والذى يفتقر إلى الإلمام بقواعد اللغة العربية ومفرداتها، قد تجهده وتشق عليه متابعة الرافعى الذى كانت كتاباته تطبيقًا حيًا، وصورةً أمينة لهذه القواعد العربية.. وباختصار، فإن الذى ينأى بنفسه عن

هذه المناهل مرغمًا أو مختارًا، بقصد أو بغير قصد، بقدح للرافعى أو بمدح له.. لابد وأن ينفر منه، ويصفه بعد ذلك بما شاءت له الصفات غير المنصفه.. التى وضعت حدودًا وسدودًا بين الرافعى والأجيال اللاحقة، مع أن الرجل فى حياته وكتاباته كان لا يريد لنفسه مثل هذا المصير.

نعم.. فالذى يتبع أدبه من سجيته، بحيث جاءت معظم كتاباته الأدبية عصارة طيبة لقلبه وروحه ووجدانه وتجربته الذاتية، هو بالقطع برىء من مثل هذه الأحكام. والذى يتخذ من المصادر الإسلامية وفى مقدمتها القرآن الكريم منهاجًا للتفكير، من المؤكد أن يكون كاتبًا له شخصيته المتميزة عن غيرها من الكتابات. والذى يكتب فى الفكر «إعجاز القرآن والبلاغة المحمدية»، «وحى القلم».. وفى الأدب «أوراق الورد»، و«حديث القمر»، و«رسائل الأحزان»، و«السحاب الأحمر»، وغيرها من الصعب أن يقال عنه أنه مقلد أو مُلْغِزْ.

ومعنى هذا أن المصادر الأولى لتفكير الرافعى هى القرآن الكريم، واللغة العربية وآدابها.. وهى نفس مصادر الجاحظ، والاختلاف يكون فى تناول كلٍّ من الأديبين الكبيرين لهذه المادة المتاحة، والتى تتاح ـ بإذن الله ـ لغيرهما من الكتّاب بعد ذلك بآلاف السنين.

ومن هنا أيضًا يمكن القول: إنه إذا كان الجاحظ يمثل آدابنا العربية الأصيلة فى القديم، فإن الرافعى يمثل هذه الآداب العربية فى العصر الحديث.. أو بمعنى آخر إذا كان الأول هو جاحظ العربية القديم، فإن الرافعى هو جاحظ العربية فى القرن العشرين.. وهذا ما يمكن أن يربط ما بين الأديبين من رباط.

لكن هذه النتيجة التى وصلنا إليها يحتاج جزء منها، وهو الخاص بتأثر الرافعى بالقرآن وبالبلاغة العربية، إلى مقدمات ربما ترقى إلى درجة الأدلة. أقول تحتاج إلى مقدمات وأدلة.. تجملها الإجابة عن سؤال: «كيف تكونت عقلية الرافعى على هذا النحو الذى رأينا؟».

وللإجابة عن هذا السؤال وغيره من الأسئلة الخاصة بنشأة الفكرة العربية

والإسلامية عند الرافعى.. علينا أن نرجع إلى آثاره الفكرية والأدبية أولاً، ثم الرجوع إلى عدد من المراجع التى كتبت عنه، وعلى سبيل المثال لا الحصر: «سيرة الرافعى بالمقتطف من رواية شقيقه النبوى الرافعى بالأستاذ محمد أحمد عيش» و«حياة الرافعى للأستاذ محمد سعيد العريان»، و«الإمام مصطفى صادق الرافعى للدكتور مصطفى نعمان البدرى»، و«الرافعى للدكتور كمال نشأت»، و«الرافعى حياته وأدبه للأستاذ حسنين حسن مخلوف».. علنا نستدل من بين سطور وصفحات هذه المراجع على ملامح الفكرة الإسلامية وسماتها، خاصةً وأن الرافعى نفسه لم يحرص كغيره من المفكرين والأدباء ـ على كتابة سيرة حياته.

وفى بداية البحث عن مقدمات الفكرة الإسلامية عند الرافعى. نلاحظ أن نقاده ومؤرخى أدبه وفكره يجمعون على أنه نشأ فى كنف أسرة تقدس الدين وتحترم اللغة العربية. وهذه سمة تميزت بها أسرة الرافعية، إلى درجة أن الرافعى نفسه كان يعلل لقب أسرته فيقول: «إن شيخًا من أجداده عرف بالعلم والاجتهاد فى الفقه سماه الناس بالرافعى تشبيهًا له بالإمام الشافعى..»

ولهذا لم يكن غريبًا أن يقول الرافعى بعد أن أصبح كاتبًا ملء السمع والبصر: «أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر. والقبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها، ويمكّن لفضائلها وخصائصها فى الحياة، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا. ثم إنه يخيل لى دائمًا إنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه».

وكان متشددًا فى كل ما يمس أمر دينه. وعن هذا يذكر الشيخ محمود أبو رية أنه كتب فى إحدى رسائله إليه اسم الرسول (ﷺ) مجردًا دون أن يتبعه بالصلاة والسلام. فكتب الرافعى إليه معاتبًا وواصفًا أن ما فعله أبو رية بـ: «سوء أدب لا يقبله من أحد ولا يقر أحد عليه..».

وكان متدينًا إلى درجة أنه كان يحاسب نفسه على كل كبيرة وصغيرة.. نذكر أنه حين أصيب بهذا الضعف الإنسانى فتحرج بحب «مىّ» كان يؤنب نفسه: «مالى ولهذا الحب.. إن لدى زوجة ليس من حقى أن أمنح غيرها نظرة أو ابتسامة، فماذا يكون من أمرى أمام الله ساعة الحساب».. ولم يهدأ إلا بعد أن فاتح زوجه بقصة حبه الروحى؛ فأذنت له وكانت تقرأ رسائلهما المتبادلة.

ولننظر إلى الرافعى فى منشئه. لنجده ينشأ فى أسرة متدينة يتناوله والده القاضى الشرعى بالتربية والتهذيب والتثقيف، وهذه الجوانب تطبعه على الطاعة وتقديس الدين واحترام العربية. ويغرقونه إلى قمة رأسه بالثقافة، وفى جانب معين منها وهو الجانب التقليدى.. فعلوم القرآن، والفقه فى الشريعة الإسلامية، والحرص على العروبه فى لغتها ودينها وما ماثلها، هى المواد الأولية لأساس تلك التربية عند كاتبنا الراحل.

حتى إذا أتم الرافعى السادسة من عمره ألحقه والده «بالكتّاب» على سنّة الناس فى عصره.. ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة. وفى العاشرة يحفظ القرآن الكريم، وتكون له من صحبة والده الذى كان يؤثره على بقية إخوته العشرة.. فى البيت والمسجد كبير الأثر فى توجه تفكيره بعد ذلك. وكان لحضوره مجالس علماء الدين الذين كانوا يتوافدون على والده بين حين وآخر إبان توليه منصب القضاء بالمنصورة أثر آخر، وكان لاعتزازه بما يسمع من أنه أحد أبناء عائلة اشتهرت بالعلم والدين منذ كانت فى الشام حتى نزحت إلى مصر أثر ثالث.

ولهذا نشأ الفتى متمسكًا بدينه حريصًا على أداء فروضه، والأكثر تأملاً لجوانب هذا الدين الذى كان حديث الأسرة ومن يتصل بها من الأهل والأصدقاء، حتى إذا دخل المدرسة الابتدائية أظهر نبوغًا فى اللغة العربية وعلومها أدهش مدرسيه. فكان مثالاً للطالب المجد فى المدرسة لا يسمح ـ كما يذكر الدكتور البدرى[٢] ـ بالهزل ولا اللعب غير المباح. ونظرًا لما كان فى لسانه من اللهجة الشامية بتأثير لهجة من الأب والأم المنتسبين إلى الشام. فإنه آثر الفصحى فى كلامه ومخاطبته، حتى لا يتحرج بين زملائه وأترابه لعدم معرفته بتفاصيل اللغة العامية.

والحق أن الرافعى كان يستنكر على زملائه استخدامهم للعامية. وقد تنبه الأب إلى ميل ابنه إلى اللغة العربية الفصيحة، مما جعله يعمل على تنمية هذا الميل، وتوفير كل إمكانيات تحققه وتطوره، سواءٌ كان ذلك عن طريق الدروس المباشرة أو التوجيه الفكرى إلى الكتب التى ترقى به فى هذا المجال، هذا إلى جانب توجيهات هذا الوالد التى قربت منه الفتى وجعلته يلازمه مستمعًا وحافظًا للقرآن مدركًا لتفسيره، واعيًا عنه أخبار السلف من علماء اللغة وفقهاء الدين، مبصرًا عنده الفقه والنحو والبلاغة والبيان حتى تطبع الفتى على ذلك الأسلوب الفريد الذى تميز به وانفرد بين أفذاذ عصره من المفكرين.

ولعل كلف الرافعى المبكر بالعقيدة الإسلامية واللغة العربية كان محل ملاحظة بقية أفراد الأسرة وليس والده فحسب. فها هو أخوه «النبوى الرافعى» يقول فيما رواه بعد ذلك لأبناء أخيه وتلاميذه:[٣] إن شقيقه الرافعى كان يقوم كل ليلة كالمذعور وهو فى سن العاشرة؛ ليحفظ الواجب الذى عليه من القرآن الكريم؛ وليستظهر بعض النصوص.

وها هى والدته تخصه برعايتها وتؤثره بالمزيد من عطفها وحنانها، وتقوم على توجيهه. بل وكانت تهيئ له مناخًا يستطيع فيه أن يتابع ويقرأ ويبدو أنه كان لهذه الوالدة أثر كبير فى حياة الرافعى فكان يذكرها دائمًا بالخير. بل وقد ظل إلى آخر أيامه ـ كما يذكر الأستاذ العريان ـ إذا ذكرها أغرورقت عيناه كأنه فقدها لتوه. فإلى هذه السيدة الفاضلة يرجع الفضل الأول فيما آل إليه أمره من محبة الثقافة والاطلاع والأخذ والاستيعاب، ولذلك لم يكن غريبًا أن ينعاها على صفحات المقطم عام ١٩١٨م فيكتب هذين البيتين:

أنا منك بين العالمين كأننى ... أشكك فى الدنيا فما هى منهما

آراها خلاء منك إلا محاصرا ... وآثار فضل حيـــــة وترحمـــــا

يضاف إلى توجيهات الوالدين.. أنه كانت للوالد مكتبة واسعة آلت ملكيتها للرافعى بعد ذلك.. تضم أشتاتًا من نوادر كتب الدين والفقه واللغة العربية، فانكب عليها الفتى واستوعبها، حتى تاقت نفسه إلى المزيد من العلم، فاستظهر

بعد القرآن والأحاديث النبوية «نهج البلاغة» الذى كان يتسلى بقراءته وحفظه حتى فى الطريق إلى بيته.

وهكذا بدأت بواكير تأملاته فى رحاب الكون وصانعه تبدو فى سنوات طفولته وصباه. فهو يذهب إلى المسجد مع إخوته يوم الجمعة، ويعود الجميع إلى البيت، ولكنه يمم وجهه شطر الحقول ليملأ ناظريه بسحر الطبيعة وآيات الجمال، ويمتع حواسه منصتًا إلى هذا الجلال الضارب حوله، وهناك عبر المفازات القريبة من مسكنه كان يظل هائمًا طوال اليوم، كأنه يخشع لله فى محارب آلائه البديعة. وكثيرًا ما لوحظ منفردًا دون إخوته ليغرق نفسه فى التفكير والتأمل.. حتى ليكاد ينسى نفسه أحيانا، بعد أن يكون إخوته قد نسوه وعادوا إلى البيت.

وكانت هذه الحالة ـ كما يذكر الدكتور البدرى[٤] ـ تلهمه معانى لا يستطيع لها تفسيرًا كأنه أحد المتبتلين من القديسين ينتظرون موعدهم مع الإلهام والوحى.

لكن مع هذا فإن تلك الحالة كانت تؤذيه من ناحية أخرى! إنه يذكر فى رسائله[٥] أنها كانت تؤذيه حين يقاسى من آلام الوحشة التى تجعله يتلهى عنها بوحشة أخرى من هذا الابتعاد والإغراق بالضبط، كما أن استمرار الاطلاع والتثقيف والدرس فى سن مبكرة تنهك جسده، وتنحله، مما مهد لإصابته بحمى التيفويد.. ذلك المرض اللعين الذى ترك بصماته فى قدرته على السمع، انتهى به إلى أن يصاب بصمم كامل حتى آخر حياته.

والحق أن أسرته حاولت علاجه من هذا الصمم، ولكن دون جدوى، وكانت النتيجة غير المتوقعة أن ينقطع عن الدراسة المنتظمة فى المدارس، مكتفيًا من الشهادات الدراسية بشهادة الابتدائية.

لكن هذا الصمم لم يقعده عن متابعة الاطلاع والعلم وسبحان الله، فكما يقولون: «ربّ ضارة نافعة»، فهذه الضارة التى أصابته فى سمعه، كانت ذات نفع له فى أمور كثيرة..

أولها: أنه اختار لنفسه جامعة يعدّ مناهجها بنفسه ويقوم شيوخ مصنفاتها ومؤلفو كتبها على تعليمه، فكان هو المعلم وهو التلميذ فى نفس الوقت!

وثانيها: أن والده حين أدرك إصراره وتصميمه على تثقيف نفسه حتى بعد إصابته بالصمم أزكى هذا الاتجاه فى نفسه ونماه، وهيأ له من أسبابه ما مضى به إلى الغاية.. وكان يرد عليه أنه وهو فى هذه الحالة إنما يجاهد فى سبيل الله. وكم صادفت هذه الإشاره الذكية من الوالد هوى فى نفس الابن، ومست من قلبه مكانًا خاليًا بالبث والنجوى، وكانت تملأ فؤاده بالطمأنينة، بعد أن كاد يفرغ من القلق والاضطراب. وهكذا أصبح الجهاد الذى أشار عليه به والده هدفاً إن لم يكن أسلوبًا اتبعه فى بقية حياته، حين كان يرى أن الدفاع عن الإسلام جهادٌ، والدفاع عن اللسان العربى جهادٌ، والدفاع عن موطنه المصرى العربى جهادٌ، والدفاع عما يراه أنه الحق فى الأدب أو فى النقد جهادٌ فى سبيل الله.

وثالثها: أن هذا الصمم الذى أصابه مبكرًا قبل أن يتم تمامه كما يقولون. ويكون أهلاً لارتياد المجالس الاجتماعية كأديب وكاتب ومفكر إسلامى، وأن يتحدث إليه العامة والخاصة بلغتهم العامية، وأن يستمع هو إليهم ويميز مفردات هذه الأحاديث باللغة العامية. هذه الإصابة حرمته من الغوص فى مفردات هذه العامية، وأصبحت الفصحى هى اللغة التى يتعامل بها ومعها ـ ليلاً ونهارًا ـ من خلال هذه الكتب التى هى لغة حياته الوحيدة. لقد كانت معرفته بالعامية ضئيلة جدّا لدرجة أنه كان فى أغلب الأحيان يسأل عن معانى الكلمات والعبارات العامية التى لا يعرفها. وربما كان يمزح فى هذا الصدد مع صديقه وتلميذه ومؤرخ حياته الأستاذ محمد سعيد العريان، حيث كان يقول له: «لتكن أنت لى قاموس العامية»، وفى هذا المزاح أكثر من دلالة!

وإزاء هذه الحالة الخاصة التى وجد عليها الرافعى، اضطر إلى البحث عن عمل يملأ به فراغه، كما أشار عليه والده، وعندما تهيأت له وظيفة كاتب بمحكمة«طلخا» بالمنصورة براتب أربعة جنيهات شهريّا، قال لوالده وهو يحاوره[٦]:

«يا أبت كيف أعين كاتبًا بسيطًا وأخى الكامل (كان وقتها) يشغل مأمورًا لمركز بوليس ـ يأمر وينهى ويحكم؟».

ويرد عليه والده: «اسمع يا ولدى أنسيت أنك أنت الذى اخترت التفرغ لدراسة القرآن الكريم وآدابه والفقه بالشريعة الإسلامية، وبإمكانك أن تسعى بما أوتيت من ذكاء وألمعيه لاستكمال ما نقص عنك والشهادة والدراسة.. وأن فى أذنيك...».

وقبل أن يستكمل الجملة بادره قائلاً: «لكن يا أبت ..» وقاطعه الوالد: «لكن.. لكنك أنت خلقت لتجاهد فى سبيل الله.. وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

●●●

ويجمل الدكتور كمال نشأت الحديث عن أثر البيئة الاجتماعية فى توجيه تفكير الرافعى[٧] قائلاً: «وقد تهيأت للرافعى نشأة علمية دينية بمولده فردًا فى أسرة تأخذ بالثقافة الدينية، وليس من شك فى أن هذه النشأة قد طبعته بطابعها فى السلوك الاجتماعى وفى مناص التفكير وأسلوب التعبير، فالرافعى يتخذ فى بيته امرأة حافظة للقرآن تتلو ما تيسر منه فى منزله كل يوم، وتعلم بناته بعضًا منه، وهو على صلة روحية بالسيد البدوى، فإذا صلى بمسجده، جلس تحت قبته ساعات خاشعًا مطرقًا يتمتم الدعوات ويتلو القرآن، وكان الرافعى يؤمن بكرمات السيد البدوى إيمانًا شديدًا، وله فيه أماديح وتوسلات. ويقال: إن السيد البدوى حينما نزل طنطا أقام فى الدار التى تعيش فيها أسرة الرافعى، وهى دار تقع فى حارة ضيقة ملتوية يطلق عليها حارة (سيدى سالم) فإذا جمعنا إلى عامل الوراثة والمناخ الاجتماعى والدينى نمط الثقافة الخاصة التى استعلنت بها أسرة الرافعى، استطعنا أن ندرك اللون الذى سيعرف به الرافعى حينما يستوى عوده، وتنضج ثماره، وعلى الرغم من أن الرافعى حينما نال الشهادة الابتدائية ـ وهى كل ما حصل عليه من الإجازات الدراسية ـ ومعرفته معرفة لا بأس بها باللغة الفرنسية، فإن أثر ثقافة أسرته والمناخ النفسى والاجتماعى الذى نشأ فيه جعله أقرب إلى مزاج الأدباء المطلعين على التراث العربى دون غيره، وقد أعان على هذا المزاج

قراءاته الباكرة فيما ضمته مكتبة والده من كتب دينية فى الأغلب والأعم، وقد استمع الرافعى فى سن العاشرة أو بعد ذلك بسنة أو بسنتين إلى والده وحفظ. كل هذا مجتمعًا يحدد لنا المناخ الذى عاش فيه الرافعى. ومن هنا ندرك تطلعه إلى أن يكون كاتب العرب والإسلام.

ولعل صفة الدأب والطموح التى عرفت عن والده، هى نفسها الصفة التى ورثها، والتى أعانته على أن يحقق ذاته ككاتب مرموق فلقد كان أبوه رئيسًا للمحكمة الشرعية فى أقاليم كثيرة، ولم يكن قد حصل على العالمية حتى عين فى محكمة طنطا، ولسبب ما ثار خلاف بينه وبين بعض العلماء فى شأن من أمور الدين، فتقدم لامتحان هذه الشهادة وظفر بها حتى يحقق لنفسه مستوى يكون قادرًا فيه على المصاولة دون أن يحس بالدونية بالنسبة إلى مناقشيه. وهذا ما حدث لابنه مصطفى تمامًا فقد أصابته حمى تركت وقرًا بإحدى أذنيه. ولم ينفع العلاج مع كثرة التردد على الأطباء، وانتقل الوقر إلى الأذن الثانية، وفى سن الثلاثين أصبح الرافعى فى عزلة عن عالم الأصوات، وهو منذ ابتداء هذه العلة عازف عن مخالطة الناس يحمل هم مرضه الخطير، فكان الكتاب صديقه وسميره، وبذلك انقطع إلى الاطلاع، ليحقق لنفسه ثقافة لازمة لأديب كان يرجو أن يكون. وقد استطاع أن يصل إلى مبتغاه، وكأنه كان يقول فى نفسه ـ كما يشير سعيد العريان ـ (إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى. .)».

إذن فالاهتمام بالقراءة أصبح كل حياة الرافعى فحين تسأله الهلال عام ١٩٢٦م عن الكتب النافعة والتأليف المفيد نلمح الكثير من سمات روحه التى نحت هذا النحو العربى الإسلامى، حيث يجيب: «فى أيام التحصيل كنت أقرأ كل ما أصابته يدى، وكنت أكثر من الملاحظة وأدقق فيها، فلا أعرف كتابًا أنا منه أكثر مما أنا من غيره، ولكن إن يكن، فلعله كتاب فى الحديث (اسمه الجامع الصغير) كنت أحضر به درس أبى رحمه الله.

ثم قرأت بعد ذلك للأفغانى، والشيخ محمد عبده وكتاب جوستاف لوبون، ثم الكتب كلها..».

وحين ينصح الشباب يقول الرافعى: «أنصح بقراءة كتب الأديان قبل سواها، فإذا استوفى الشاب منها قانون ضميره فهو بعد بحاجة، وليكن عربيًا مشرقيًا، ثم ليقرأ ما يشاء، فالصحة تجعل كل غذاء صحة».

وفى رسائل الرافعى للشيخ أبو رية يوصى: «.. فاجتهد أن تكون مفكرًا ناقدًا، وعليك بقراءة كتب المعانى قبل كتب الألفاظ، وادرس ما تصل إليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية فى لغة أوربية أو فيما عرّب منها!

واصرف همك من كتب الأدب إلى كليلة ودمنة والأغانى ورسائل الجاحظ، وكتاب الحيوان والبيان والتبيين، وتفقه فى البلاغة بكتاب (المثل السائر)، وهذا الكتاب وحده يكفل الملكة الحسنة فى الانتقاد الأدبى، وقد كنت شديد الولوع به».

ولا ينسى التأكيد على القراءة فى نهاية رسائله، حيث يقول: «اقرأ ما تصل إليه يدك، فهى طريقة شيخنا الجاحظ، وليكن غرضك من القراءة اكتساب قريحة مستقلة، وفكر واسع، وملكة تقوى على الابتكار.. فكل كتاب يرمى إلى إحدى هذه الثلاث.. فاقرأه..».

وهذا الولع بالقراءة جعل الأستاذ سعيد العريان يقول: «وبقى الرافعى فى مدرسته الجامعة هذه التى أنشأها لنفسه يدرس ويطالع، لا يرى إن انتهى من العلم إلى غاية، ليتزود للشعر زاده، وليبلغ من العلم مبلغًا يعينه على أن يقول وينشئ»[٨].

ويذكر الأستاذ حسنين حسن مخلوف صديق الرافعى وتلميذه، أن الرافعى كان يوصى بالإكثار من قراءة القرآن ومراجعة كتب التفسير، ثم إمعان النظر فى كتاب من كتب الحديث كالبخارى أو غيره، ويجمع الرافعى خلاصة نصائحه فى بيت من الشعر، يقول:

وأول رأيك أن تستفيد .·. وآخر رأيك أن تجتهد

والرافعى يحدد أساس أدبه حينما كان ينصح تلاميذه.. وكل الذى ذكره لتلاميذه وأصدقائه، وفى مقدمتهم رسائله للشيخ محمود أبو رية هو المنهاج الدراسى الذى سار عليه فى مستهل حياته الفكرية. بحيث تجد أثرًا لثقافته الدينية فى أدبه وفكره. وقد أخص الدكتور كمال نشأت[٩] بعضًا من الاقتباسات القرآنية فى أدب الرافعى فى مثل قوله: **(حتى لتحسب الشعراء من النحل، تأكل من كل الثمرات فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس)**، أو قوله: **(كان هذا الحب قد ضرب بيننا وبين الحقائق بسور ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب)**، أو قوله يخاطب القمر: **(أتذكر، وقد رأيتك ثمة قريبًا من الحبيبة، تصب عليها النور حتى خيل إلىّ أنها إحدى الحور العين، متكئة فى جنتها على رفرف خضر..)**، أو قوله: **(فأينما مد الانسان عينيه رأى لفظًا كالإشارة أو إشارة كاللفظ، ولكن قتل الإنسان ما اكفره..)**، أو قوله: **(وإذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف)**.

كذلك نجد الرافعى وهو متأثر بثقافته الدينية، متابع للمنهج الذى سلكه كثير من الكتّاب والشعراء القدامى فى تحلية كلامهم ببعض معانى وصور القرآن الكريم. فهو يتضمن أيضًا حسب مفهومه البلاغى القديم فى خلق التعابير، فيقول: «لقد تراخى الزمن بى وبها فلو عددت مائة وخمسين قمرًا منذ فارقتها..» وذلك بدلاً من أن يقول مائة وخمسون شهرًا، ويقول: «فاختلج الذى هو فى صدرى» بدلاً من أن يقول قلبى، أو يقول: «سل الشيخ الفانى الذى أوفى على المائة فأصبح عمره فى الإنسانية صفرين إلى عود» وهو يشرح جملته السابقة فى الهامش المائة هكذا (١٠٠)، والشيخ الفانى كالعود من العظم.

وغيرها من التعابير التى يساير فيها الجمل القرآنية، والاستفادة من الجمل البلاغية، فيتبع أسلوب التوليد، وفى ذلك يقول الأستاذ حسنين حسن مخلوف[١٠]: «إن المعانى تتلاقح فيلد بعضها بعضًا فى أسلوب من الحياة،

والنبوغ ليس شيئًا إلا التركيب العصبى الخاص بالذهن، أى لكل ذهن من أذهان النوابغ. هذا هو مذهب الرافعى فى الكتابة، وهذا هو الأدب عنده، وهو إنما يصف نفسه. ويسوق لذلك بعض الشواهد، فيقول: «سئل مصور مبدع.. بماذا يمزج ألوانه فتأتى ولها إشراقها وجمالها فى الصورة؟

فأجاب: إنى أمزجها بمخى».

والرافعى يؤكد أسلوبه فى الكتابه، فيقول: «إن أناتول فرانس الكاتب الفرنس، المشهور كان يكتب الجملة، ثم ينقحها، ثم يهذبها، ثم يعددها..

وهكذا عدة مرات يقدم ويؤخر من موضع إلى موضع، وسر طريقته إنما هو آت من جهاز التوليد».

فجهاز التوليد عند الرافعى متى استحكم فى إنسان أصبح بمقام ملك الوحى من النبى. وها هو الرافعى يقول: «هذه القوة إن أرادت معنى الجمال أخرجت الشاعر، وإن أرادت كشف السر عن الأشياء أخرجت الأديب، وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم»، وهو يسوق هذه المعانى موضحًا لها، فى قوله: «لا يخلق الملهم أبدًا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله فى قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق، تنفذ إليها الأشعة الروحانية فتتساقط منها المعانى».

وإذا كان الرافعى قد تأثر فى أسلوبه بالكثير من الجمل القرآنية، فاقتبس فى نثره وشعره كما رأينا، وتأثر بالنهج الذى سلكه الكتّاب والشعراء العرب القدامى. فماذا عن منهجه فى التاريخ لآداب العرب أنفسهم على اعتبار أنه ليس هناك فصلاً بين الأدب والدين؟ ثم ما منهجه فى تتبعه لإعجاز القرآن؟.. والإجابة عن هذين السؤالين مطلوبة.. ذلك أن تاريخ آداب العرب هو المقدمة، أو الجزء الأول أو التمهيد لكتاب إعجاز القرآن.

يحدد الرافعى منهجه فى تأليف كتاب تاريخ آداب العربية، قائلاً: «رأينا الطريقة المثلى أن نذهب فى تأليفنا مذهب الضم لا التفريق، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التى هى معانى الحوادث لا العصور، فنخصص الآداب بالتاريخ،

لا التاريخ بالآداب كما يفعلون. ولذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه متقلبًا على كل عصوره، سواءٌ اتسقت أم افترقت، فلا تسقط مادة عن أعين موضعها، ولا تقتصر على غير حقيقتها، ولا تلجأ إلى غير مكانها. ثم لا يكون بعد ذلك فى التاريخ إلا التاريخ نفسه، لا ما يزين به العبارة المونقه، ولا ما توصى به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف».

فالرافعى بهذا المنهج يجعل الكتاب دائرًا على الأبحاث التى هى معانى الحوادث لا العصور، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه متقلبًا به على كل عصوره. وهو لذلك يقسم الكتاب إلى قسمين كبيرين. . أولهما: «فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك»، وثانيهما: «فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة».

ويلاحظ أن الرافعى فى هذا الكتاب لا يعترف بفصل الأدب عن الدين. . إنه ينبه إلى فساد منهج «بيكون» الذى يفصل بين الفن والاجتماع، ويميز الأدب عن الدين.

ونراه يعقد فصلاً يتناول فيه كلمة «الأدب» فتقلب مع أدوارها اللغوية، وأبان عن معناها فى الجاهلية وصدر الإسلام من وزن الأخلاق وتقويم الطباع، وكيف عرفت حدود الأدب فى القرن الثانى، وبقيت كلمة الأدباء خاصة بالمعلمين». . فلما فشت أسباب التكسب بينهم وبين الشعراء أدركتهم حرفة الأدب.

ثم كتب الرافعى فصلاً عن العرب، ومهد بذلك للحديث عن اللغة، فتحدث عن أصل اللغات، وفرق بين التوفيق والمحاكاة، ودار مع السلسلة التاريخية وعماد اللغات السامية وتهذيب اللغة العربية، منذ عهد إسماعيل (عليه السلام) وانتشار القبائل حتى سيادة قريش وأسواق العرب.

• بعد ذلك خصص فصلاً عن مناطق العرب، والحروف العربية، واختلاف اللهجات، وحقق معنى اللغات فى الاصطلاح، وعرض لعيوب المنطق العربى وبقايا آثار اللغة بمقارنة مفيدة.

ثم تحدث فى فصل كبير عن نمو العربية، والوضع والارتجال والاشتقاق والمجاز. وبعد أن كتب فى تمدن العرب اللغوى انتهى إلى أسرار النظام اللغوى، وعلاقة الألفاظ بالمعانى والقرائن الحسية والنفسية.

والباب الثانى الذى عقده للرواة والرواية. تكلم فيه عن الأصل التاريخى للرواية والرواة، والرواية فى الإسلام وتدين الحديث والإسناد. ثم اتصال الرواية بالأدب، حتى انتهى إلى علم الرواية حيث عرض لأقسامها، وعقد فصلاً لرواية اللغة. ثم تكلم عن الرواة الوضاعين للشعر، واختلاف الروايات والتزيد فى الأخبار والقصاص. وعدّ الشعر عمود الرواية العربية، وتحدث عن العربية باعتبارها علم النحو، ثم اللغة ومذاهب الطائفتين فى الكوفة والبصرة.

وفى البحث عن منهجه فى كتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، فإننا نقرأ الرافعى نفسه، حين يقول: «وبعد فإنا سنقول فى القرآن الكريم مما يتعلق بلغته ويتصل ببلاغته، ويكشف عن أوجه الإعجاز فى ذلك لا ننقد فى غير سبب لما نحن بسبيله، ولا نذهب فى الكلام عن نتائجه من نتائجه، ولا يكون من شأننا أن نتزيد بما ينزل من عَرضِنا منزلة القافية، أو ننكثر مما وراءه بمثبة أو نافية. فإن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، وأن القول فيه ما برح كثير المذاهب.. متعدد الجهات.. متصل الحدود يفضى بعضها إلى بعض، إذ هو كتاب السماء إلى الأرض مستقرًا ومستودعًا، وقد جاء بالإعجاز الأبدى الذى يشهد على الدهر ويشهد الدهر عليه. فما من جهة الكلام إلا وأنت واحد إليها متوجهًا فيه ،وما من عصر إلا وهو مقلب صفحة منه حتى لتنتهى الدنيا عند خاتمته، فإذا هى خلاء..».

ويرى الرافعى أنه لابد له من صدر يبتدئ به القول فى تاريخه وجمعه وتدوينه وقراءاته، حتى تكون هذه سببًا إلى الكلام فى لغته وبلاغته، ثم إعجازه فى اللغة والبلاغة؛ لأن بعض ذلك يريد بعضه..

ولتقريع ذلك المنهج بحث الرافعى تاريخ القرآن، آتيًا على جميع ما عرف فى

هذا الشأن بإيجاز بالغ من نواحى جمعه وتدوينه وحكمة نزوله مفرقًا، وترتيبه، ورسم المصاحف، ورواية القرآن فى آخر هذه المباحث.

وعقد فصلاً للغة القرآن وموسيقاه. حيث أبان عن الفطرة، واختلاف القراءات، والملاءمة بين الألفاظ والمعانى، كما أوضح التوفيق فى استنباط الأحكام لينتهى إلى قراءة القرآن.

ويرى الدكتور البدرى أن الفصل الخاص بتأثير القرآن فى اللغة، من أروع فصول[١١] الكتاب.. فبمقارنة علمية استدل بها على حال العرب بالقرآن واجتماعهم على لغته، ثم خلود لغتهم به واتصالهم بمادة العلم.

ويخصص الرافعى فصلاً للجنسية العربية فى القرآن. ويمتد به حتى يجعل منه ميثاقًا قوميًا لإعادة بناء الأمة. مهما امتدت بها الأيام، كما استطاع أن يقيم الدليل على أسرار الإعجاز فى هذه الناحية بين دعائم الثبات ووسائل النهضة وآداب الفطرة، والإرادة الاجتماعية للاعتقاد.

ثم يفرد فصلاً للقرآن والعلوم، يستوعب فيه هذا الموضوع الكبير بموجز لا يتوفر عليه سواه. إذ يتناوله بالتاريخ العلمى ابتداء، والأديان وتطورها فى عقل البشرية، ثم نشأة علوم التفسير والفقه والبلاغة والتاريخ، وما لحق العامة وأهل النظر من دعاوى المستحدثات العلمية؛ حتى يقف على مفترق يدل فيه على تطور العلم، وتطور العقل البشرى فى فهم القرآن.

وقدم الرافعى دراسة نفسية فريدة لأسلوب القرآن، ليست منها سائر الدراسات البلاغية، فقد أدرك مرونة ذلك الأسلوب القرآنى المعجز، حيث لا يصادم ولا يضاد الآراء المتقلبة علميًا على اختلاف العصور.

ويحدثنا عن نظم القرآن وإعجاز تأليفه فى الحروف وأصواتها والكلمات والجمل، وأوضاعه التركيبية التى صيغت بها بلاغته، والتى هى تمام إعجازه.

والحديث عن إعجاز القرآن يمثل القسم الأول من الكتاب، يأتى بعد ذلك

القسم الثانى من الكتاب، وهو عن البلاغة النبوية، وفيه انتقل إلى دراسةْ الأدب النبوى، الذى هو الثمرة الأولى فى الغرس الإلـهى للأدب العربى بالقرآن المبين.

وقد غطى الرافعى موضوع فصاحة النبى ﷺ تغطية كاملة، ورأى هذه الفصاحة توفيقٌ من عند الله.

ثم كتب عن نشأة اللغة عند الرسول الكريم، وإقرار العرب بها، عرفًا وأدبًا. مبينًا أحكام منطق الرسول (عليه الصلاة السلام)، وتعبير اللغة والصوت واجتماع كلامه وقلته، وبلاغة الطبع التى أثرت عنه وهو يؤتى جوامع الكلم.

وبعد أن نفى الشعر عنه تاريخًا وأدبًا، تكلم عن تأثيره فى اللغة، بما أحدثه من التركيب والمصطلحات والأوضاع المفردة، التى اهتمت بها علوم اللغة.

كذلك درس الرافعى رسائل الرسول (عليه السلام)، وما فيها من بلاغة وقصد وأدب.. حتى أدرك الفطرة اللغوية التى كان عليها، وهى تميز بالإلهام والتوفيق.

ويرى الرافعى أن نسق البلاغة النبوية فى وجوه البيان ومناقلة الحديث بلا صنعه، وكون ذلك النسق من سجاياه (عليه الصلاة والسلام). وأشار كذلك إلى أثر النفس الإنسانية، وطابع الوضع الإلـهى للنفس النبوية، ونفس النبى العربى الأمين. مستوفيًا بذلك القصد فى إقامة دعائم البلاغة النبوية على أسس من البيان والحكمة والأدب العالى، تلك البلاغة التى سجدت الأفكار لآيتها وحسرت العقول دون غايتها، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقه، وتجىء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز فى حقيقة.

هذا هو كتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» الذى قال عنه سعد زغلول: «كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم».

وأشاد به الشيخ محمد رشيد رضا، وكأنه يحث الناس على قراءته بغية الاستعانة على النبوغ فى بلاغة لغتهم، والتفقه فى كتاب الله تعالى، وتعرف الشىء الكثير من أسرار إعجازه مما لا يجدونه فى غيره.

وقال عنه الدكتور يعقوب صروف منشئ المقتطف: «يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن الكريم، أن يكون عنده نسخة من هذا الكتاب».

وعن حقيقة إعجاز القرآن قول الرافعى: «أما الذى عندنا فى وجه إعجاز القرآن وما حققناه بعد البحث وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الرؤية، وما استخرجناه من القرآن نفسه فى نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة واكتناه الروح التاريخية فى أوضاع الإنسان وآثاره، وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء فى الأغراض التى يقصد إليها، والجهات التى يعمل عليها، وفى رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوى التى مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حى من الألفاظ يطابق سنن الحياة فى دقة التأليف وإحكام الوضع، وجمال التصوير وشدة الملاءمة، حتى يكون أصغر شىء فيه كأكبر شىء فيه ـ نقول: أن الذى ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا، أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغًا وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة.. وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلـهية، يشاركها فى إعجاز الصيغة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها، وما تظنه إلا الصورة الروحية للإنسان، إذا كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله.

فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز فى أثره الإنسانى، ومعجز كذلك فى حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شىء، فهى باقية ما بقيت».

وحين يبحث الرافعى فى بيان ذلك الإعجاز يقول: «هذا.. وإن لنا قبل الرسل فى بيان ذلك الإعجاز، أن نوطئ بنبذ من الكلام فى الحالة اللغوية التى كان عليها العرب عندما نزل القرآن، فسنقلب من كتاب الدهر ثلاث عشرة صفحة تحتوى ثلاثة عشر قرنًا؛ لنتصل بذلك العهد حتى نخبر عنه، كأننا من أهله،

وكأنه رأى العين وإنما سبيل الصحة فيما نحن فيه أن يشهد عليه الشاهدان: العين والأذن، إذ كان من شأنهما أن تثبت دعوى فى حادثة دون أن يشهد عليهما أحدهما أو كلاهما.

بلغ العرب فى عقد القرآن مبلغًا من الفصاحة لم يعرف فى تاريخهم من قبل، فإن كل ما وراءه إنما كان أدوارًا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر وتفننوا فيه، وتوافر عليه من شعرائهم أفرادٌ معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر فى تاريخه بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه. وما نفض عليه من الصنيع والرونق، ثم كان لهم من تهذيب اللغة، واجتماعهم نمط من القدسية يرونه مثالاً لكمال الفطرة الممكن أن يكون، وأخذهم فى السمت ـ ما جعل (الكلمة) نافذة فى أكثر ما لا يعيدها اختلاف من اللسان ولا يعترضها تناكر فى اللغة، قامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن.

وكل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة وتتأتى حكمة الأشياء، فإنه يرى كل ما سبق على القرآن ـ من أمر الكلام العربى وتاريخه ـ إنما كان توطيدًا له وتهيئةً لظهوره وتناهيًا إليه ودربةً لإصلاحهم به، وليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة، فما كان فيهم كالبيان آفق منظرًا وأبدع مظهرًا وأمد سببًا إلى النفس وأرد عليها العاقبة، ولا كان لهم كذلك البيان أذكى فى أرضهم فرعة وأقوم فى سمائهم شرعا، وأوفر فى أنفسهم ريعًا وأكثر فى سوقهم شراءً وبيعًا، وهذا موضع عجيب للتأمل، ما ينفذ عجبه على النظر وأبعاده من نشأة لغوية، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة مما تنطوى عليه هذه المعجزة، وتأتى به على أكمل وجوهه وأحسنها، وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها فى الأمم، صورة أخرى من تلك المعجزة».

وفى القسم الخاص بالبلاغة النبوية يستهله الرافعى بالحديث عن بلاغة الرسول

ﷺ، فيقول: «أما فصاحته ﷺ فهى من السمت الذى لا يأخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هدنوا الكلام وحذفوه وبالغوا فى إحكامه وتجويده، إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظرة متقدم، وروية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الإجادة التى تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعًا مصدرًا، على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب، ومن حذف فى موضع إطناب فى موضع ومن كلمة غيرها أليق ومعنى غيره أرد، ثم هم فى المعانى ليس لهم إلا حكمة التجربة وإلا فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض، قل ذلك أو كثر، وعلى مقدارها، وعلى وجه تأديتها يكون مقدرًا الرأى فيه ووجه القطع به.

بيد أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا جاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده، ثم لا يعرض له فى ذلك سقط وإلا استكراه، ولا تستذله الفحاءة وما يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع . . . ثم أنت لا تعرف له إلا المعانى التى هى إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد وبراعة القصد، والمجىء فى كل ذلك من وراء الغاية».

ويقول الرافعى: «وإن كلامه ﷺ كما قال الجاحظ: هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه،وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق».

ويستطرد الرافعى فى الحديث عن بلاغة النبى، فيقول: «ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقًا من الله، وتوفيقًا إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة فى البيان والفصاحة، ثم هم

مختلفون فى ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم فى اللغات وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافى والمضطر، ومنهم ذو اللوثة والخالص فى منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفراط بينهم وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم المآخذ».

وفى كتابه الأشهر «تحت راية القرآن. المعركة بين القديم والجديد» نرى الرافعى يجمع المقالات التى كان قد كتبها فى الرد على الدكتور طه حسين بعد نشره كتابه «فى الشعر الجاهلى» وقد كان الرافعى من أكبر المعارضين لهذا الكتاب الذى صدر عام ١٩٢٦م. والحق أن ما كتبه الرافعى تقييمًا لكتاب «فى الشعر الجاهلى» هو أهم المراجع تقريبًا، فقد نفذ إلى لب الموضوع فكانت مقالاته فى هذه المعركة هادفة. غير أن تسجيل المعركة وردود الرافعى له مجال آخر غير هذا المجال[١٢]، غير أن هناك كثير من الموضوعات تستوقفنا فى كتاب «تحت راية القرآن» ومنها فصل كتبه الرافعى عن« الجملة القرآنية» على أثر رسالة جاء بها من أمريكا تناولت الكلام عن كتابه «رسائل الأحزان» مؤدى هذه الرسالة أن يترك الرافعى «الجملة القرآنية» و«الحديث الشريف»، وينزع إلى غيرهما فى معركته مع أهل المذهب الجديد، ومن جملة ما يقوله الرافعى: «ولقد وقفت طويلاً عند الجملة القرآنية فظهر لى نور هذه الكلمة. مالم أكن أراه من قبل حتى لكأنها (الميكرسكوب) وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفيًا فيستعلن، ودقيقًا فيستعظم، وما يكون كأنه لا شىء مع ذلك لا تعرف العلل الكبرى إلا به.

وإذا تركت الجملة القرآنية عربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها فى تربية الملكة وإرهاف المنطق، وصقل الذوق القديم نشأة خالصة فى أصح قبائل العرب، وردها تاريخنا القديم إلينا، حتى كأننا فيه ووصلتنا به، حتى كأنه فينا وحفظها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه، حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة هى تدور فى أفواهنا وسلائقهم فى تقييمنا على أوزانها - إذا أنا فعلت ذلك

ورضيته، أفترانى أتبع أسلوب الترجمة فى الجملة الجلية.. وآسف إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة، وأرتضى تلك اللكنة المعوجة، وأعين بنفسى على لغتى وقوميتى وأكتب كتابة تميت أجدادى فى الإسلام ميتة جديدة، فتنقلب كلماتى على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت، وأنشئ فى سنى المريضة نشأة من الناس، يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذى كان يجب أن يكون أحب الأشياء إليها!».

وتحت عنوان[١٣]: «الرأى العلمى» فى العربية والفصحى» يحدثنا الرافعى عن القرآن فيقول: «إن فى العربية سرًا خالدًا هو هذا الكتاب المبين (القرآن) ـ والذى يجب أن يؤدى على وجهه العربى الصريح ويحكم منطقًا وإعرابًا، بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها، وبالجملة عن مؤداها، وبحيث يستوى من اللحن الخفى واللحن الظاهر».

والقرآن الكريم ليس كتابًا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده وإن كانت وثيقة، ولأتى عليه الزمان أو بالحرى لنفس من أمره شىء كثير عن الأمم ولاستبان فيه مساع التحريف والتبديل من غالٍ أو مبطلٍ، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذرًا للعوام وللمستعجمين فى إحالته إلى أوضاعهم إذا ثابت لهم قدرة على ذلك ولو فعلوه لما كان بدعًا من الرأى ولا مستنكرًا فى قياس أصحابنا.. لأنهم لم يعدوا منفعة طلبوها من سبيلها، وخطة انتهجوها بدليلها.

وليس يقول هذا إلا ظنين، قد انطوى صدره على غل، واجتمع قلبه على دخلة مكرهة. وإلا جاهل من طراز أولئك لا يستطيل نظره لتجربة ولا ينفذ بعلم. وإنما هو آخذ بذنب الرأى، لا بوجهة، ولكن يتوجه معه ولا يقبل به، ولكن يدير به الرأى.

إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله

مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكمًا حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطى هذا البسيط، ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم، لما اطرد التاريخ الإسلامى ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية، ثم تلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ونضب ما بينهم إلا أن تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية ـ السياسية ـ فلا تتبين من آثارهم فى أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء إذا انساب الجداول فى المحيط.

إنما يصب الله علينا بلاء فتياننا لأمتهم ينشئون فى أرضنا نشأة المستعبد الرقيق وإن غنمًا لهم أن حرصوا على ما بقى من جنسيات العربية، وأن نشعب لحفظ هذه الصلة وتوثيق تلك العقدة بيننا وبين أسلافنا ونمد من ذلك سببًا إلى حاضرنا، ثم إلى مستقبلنا، فلا يكون فى تاريخنا اقتضاب ولا تبر. ثم لكى لا نكون على ديننا وأمتنا ما كان أولئك الأوشاب والزعانف من الترك إلى غيرهم من أصناف تلك الحمراء التى اجتاحت العرب، وجعلت بأسهم بينهم لعلة المباينة فى الجنسية اللغوية. حتى لم يكن يبقى ثمانمائة سنة من استبدادهم ما يعدل ثمانين سنة، كانت منذ أول العهد بالإسلام ولكن آن لفتياننا ذلك، وهم لا يأخذ الإسفنج من الماء، ينتفخ بقليل منه، ثم لا يلبث أن يمجه أو يتطاير منه ولا يثبت فيه شيئًا».

●●●

وفى الجزء الأول من كتابه «وحى القلم»[١٤] نقرأ للرافعى مقالاً عنوانه: «الله أكبر» فيه: «الله أكبر! صوت رهيب ليس من لغة صاحبها ولا من صوته، كأنما تفرع السماء فيه ملء سحابة على رجس قلبها فتسقيه حتى ليس به ذرة من دنسه الذى ركبه الساعة. كان لصاحبها فى حسر أعصابها ذلك الصوت الأسود المنطفئ

المبهم المتلجلج مما فيه من قوة شهواته للمؤذن صوت آخر فى روحها.. صوت أحمر مشتعل كمعمعة الحريق، مجلجل كالرعد، واضح كالحقيقة، فيه قوة الله!

سمعت صوت السلسلة وقعقعتها تلوى وتشد عليها، ثم سمعت صوت السلسلة بعينها يكثر حديدها ويتحطم.

كانت طهارتها تختنق فنفذت إليها النسمات، وطارت الحمامة حين دعاها صوت الجو بعد أن كانت أسفت حين دعاها صوت الأرض.. طارت الحمامة لأن الطبيعة التفتت فيها لفتة أخرى.

ويكرر المؤذن فى ختام آذانه (الله أكبر.. الله أكبر!)».

إلى أن يقول الرافعى فى نفس المقال: «عرفت الله من معنى المسجد ما لم أعرف حتى كأنى أدخله من قبل، فكأن هذا الجالس إلى جانبى كضوء المصباح، فانكشف لى المسجد فى نوره الروحى عن معان أدخلتنى من الدنيا فى دنيا على حدة. فما المسجد بناء ولا مكان كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيح للعالم الذى يموج من حوله ويضطرب فإن فى أسباب الزيغ والباطل، والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها. وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناس مراراً كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب وروحانية النفس. ولا تدخله إنسانية الإنسانية إلا طاهرة منزهة مصبغة على حدود جسمها، من أعلاه شعار الطهر الذى يسمى الوضوء كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد.

ثم يستوى الجميع فى هذا المسجد استواءً واحداً ويقفون موقفًا واحداً، ويخشعون خشوعًا واحداً. ويكونون جميعًا فى نفسية واحدة وليس هذا وحده، بل يخرون إلى الأرض جميعًا ساجدين لله. فليس لرأس على رأس ارتفاع، ولا لوجه على وجه تميز، ومن ثمّ فليست لذات على ذات سلطان، وهل تحقق الإنسانية وحدتها فى الناس بأبدع من هذا؟ ولعمرى أين يجد العالم صوابه إلا ههنا؟..

فالمسجد هو فى حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع، هو فكر واحد لكل الرءوس، ومن ثمّ فهو حل واحد لكل المشاكل، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله..».

وفى الجزء الثانى من كتابه «وحى القلم» يحدثنا الرافعى عن «الإشراف الإلهى»، فيقول: «كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار يولد النبى فيوجد فى الإنسانية النور المسمى بالدين.. وليس النهار إلا يقظة الحياة، تحقق أعمالها.. وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهى، فى عملها للمادة، تحول به وتغير، والنبى يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع فى عمله تترقى فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور، وأشعة الوحى من النبى هى قصة الهداية لإنسان الكون فى نور من الكلام.

والعامل الإلهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين أجرام النور من الشموس والكواكب وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبى إنسان من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل التلسكوب فى الدقة معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة فى درس الأنبياء (صلوات الله عليهم) أتجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة، فإنما النبى إشراف إلهى على الإنسانية، يقومها فى فلكها الأخلاقى، ويخدمها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب».

وعن فلسفة الإسلام يكتب الرافعى، قائلاً: «الإسلام دين يعلو بالقوة ويدعو

إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ويستفرغ همه فى ذلك، لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى. وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة. إن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها. . أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها. وتلك تعمل للتفريق وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعيّا فى الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد. ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية التى وقودها الناس والحجارة فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع يحرص على ما يكون له ويشره إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة ويبدع وسائل الخداع، ويزيد فى كل ذلك فى تعقيد الدنيا. بل نظرة القلب المسالم يخلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها، فيعف عن كثير. ويعرف الإنسانية ويطمع فى غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه، وأن الحرام ومن عز ليس إلا تعلل ساعة ذاهبه ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل بين خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض. فمن أى عطفيه أعماله بخيرها وشرها. فهو كالمتهم المستراب به فى سياسة النفس. التفت هذا الإنسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان، لا يمشى خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية، ويجمعان فيه حتى نزوات الكبر، ويترجمان عنه حتى معانى النظر».

وعن حقيقة المسلم يحدثنا الرافعى، فيقول: «لقد كان المسلم يضرب بالسيف فى سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه فما يحسها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه!

وكان يبتلى فى نفسه وماله فلا يشعر فى ذلك أنه المرزأ المبتلى، يعرف فيه

الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر فيه التاريخ الظافر فى بطله العظيم أصيب فى كل موضع من جسمه بجراح.. فهى جراح وتشويه وألم، وهى شهادة نصر!

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوة وسمو كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا، ويحمل دائمًا من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين، وكانت الحقيقة التى جعلها النبى ﷺ مثلهم الأعلى وأقرها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه، إذ إنها واجبة لكل مسلم على غيره، فلا تكون فى الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة تجعل المسلم وما هو إلاَّ روح أمته تعمل به أعمالها هى لا أعماله وحدها.

المسلم إنسانٌ ممتد بمنافعه فى معناه الاجتماعى حول أمته كلها، لا إنسان ضيق.. مجتمع حول نفسه بهذه المنافع، وهو من غيره فى صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر، تقول الأمانة لكليهما لا قيمة لميزانك إلا أن يصدقه ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلام صحيحًا تامًّا حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه فى أخلاق الله. فما هو بشخص يضبط طبيعته يقهرها مرة، وتقهره مرارًا ولكن طبيعة تضبط شخصها. فهى قانون وجوده.

لا يضطرب من شىء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟.

لا يخاف من شىء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟.

لا يخشى مخلوقًا وكيف يخشى ومعه الله؟.

أيها الأسد.. هل أنت بجملتك إلا فى طبيعة مخالبك وأنيابك؟».

وعن فلسفة الصيام يقول الرافعى: «يضطرب الاشتراكيون فى أوربا وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص فى أعصابه، ولايزال مذهبهم فى الدنيا مذهب كتب ورسائل. ولو أنهم قدروا حكمة الصوم فى الإسلام لرأوا

هذا الشهر نظامًا عمليًا من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة. فهذا الصوم فقر إجبارى تفرضه الشريعة على الناس فرضًا ليتساوى الجميع فى بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير ومن ملك القرش الواحد ومن لم يملك شيئًا. كما يتساوى الناس جميعًا فى ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التى يفرضها الإسلام على كل مسلم. وفى ذهاب تفاوتهم الاجتماعى بالحج الذى يفرضه على من استطاع.

وفى الجزء الثالث من كتابه «وحى القلم» نقرأ للرافعى فصلاً عنوانه: «قرآن الفجر» يقول فيه: «كنت فى العاشرة من سنى، وقد جمعت القرآن كله حفظًا وجودته بأحكام القراءة، ونحن يومئذٍ فى مدينة دمنهور عاصمة البحيرة، وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة فى أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم.. فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة، ويغير الحياة فى عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشى عليه، وتراب المعانى الأرضية فلا يتعرض له. ويدخل فى الزمن المتحرر من أكبر قيود النفس ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحنى فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة، الساجد بين يدى ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هى حكمة هذه الأمكنة التى تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة فى الحياة تشعر القلب البشرى فى نزاع الدنيا أنه فى إنسان لا فى بهيمة.

وذهبت ليلة فبت عند أبى فى المسجد، فلما كنا فى جوف الليل الأخير.. أيقظنى للسحور، ثم أمرنى فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته. فلما كان السحر الأعلى، هتف بالدعاء المأثور: اللهم لله الحمد.. أنت نور السموات

والأرض. ذلك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ومن بهن ومن عليهن.. أنت الحق، ومنك الحق.. إلى آخر الدعاء.. وأقبل الناس إلى المسجد وأخترنا العليه التى يسمونها الدكة، وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد فى ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت.. فى كل قنديل زوبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص بصيصًا كأنه بعض معانى الضوء لا الضوء نفسه فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها تلوح كأنها شقوق مضيئة فى الجو. فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة وتبدو من الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يؤمن به ولا يبينه. كما تشعر النفس إلا أن العين تمتد فى ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سر يشف عن سر.

وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشعل فى أطرافه العليا، وإلباس الظلام زينته النورانية، فكان الجالس فى المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ويحس فى المكان بقايا أحلام ويسرى حوله ذلك المجهول الذى سيخرج منه الغد. وفى هذا الظلام النورانى تنكشف له أعماقه منسكبًا فيها روح المسجد، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئًا وادعاً راجعًا إلى نفسه مجتمعًا فى حواسه منفردًا فى صفاته منعكسًا عليه نور قلبه.. كأنه خرج من سلطان ما يضىء عليه النهار .. كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض.

ثم يشعر بالفجر فى ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديًّا.. كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ويرق من غلظة وكأنما جاءوه مع الفجر يتناول النهار من أيديهم مبدوءًا بالرحمة معتمًا بالجمال، فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوى بالنور الإنسانى، فإذا هو يتلألأ فى روحه تحت الفجر».

وتحت عنوان: «السمو الروحى الأعظم» يقول الرافعى: «إن أسلوبه ﷺ أجد له فى نفسى روح الشريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة وقوة أمر نافذ

خالصًا خلوص السر، واقعًا من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها. لا يتخلف وإن له مع ذلك نسقا هادئًا هدوء اليقين مبينًا بيان الحكمة وكيف لا يكون كذلك، وهو أمر الروح العظيمة الموجهة لكلمات ربها ووحيه ليتوجه بها العالم كأنه منه، وكان المحور دورته بنفسه.. هى دورته بنفسه وبما حوله. روح النبى مصلح رحيم هو بإصلاحه ورحمته فى الإنسانية وهو بالنبوة فوقها. وهو بهذه وتلك فى شمائله وطباعه مجموع إنسانى عظيم لو شبه بشىء لقيل فيه إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا.

ومن درس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق رأى نسقًا من التاريخ العجيب كنظام فلك من الأفلاك موجه، فالنور فى النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهى. فليس بمثرى عاقل مميز أن هذه الحياة الشريفة لذلك النظام الدقيق فى ذلك التوجه المحكم لا يطبقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة، إلا إذا كان فى لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة.

ولم يكن مثله ﷺ فى الصبر والثبات واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا فى الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضى. فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة، فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس قد لا يفهموا معانى التراب وهم أحياء فوق التراب، أو يحدهم الجسم الإنسانى من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته وبذلك كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ فى الإنسانية كلها دائمًا، ولرأس الدنيا نظام أفكاره الصحيحة».

وهكذا كان أسلوب وتفكير كاتبنا الراحل مصطفى صادق الرافعى فى العقيدة والدين أسلوبًا عاليًا وتفكيرًا شامخًا.

الهوامش

(١) مجلة العربى يوليو ١٩٦١م ـ الرافعى ـ حارث طه الراوى . .
(٢) الإمام الرافعى ـ الدكتور مصطفى نعمان البدرى ـ ص٢٤٣ .
(٣) سيرة الرافعى ـ أحمد محمد عيش ـ العدد ٩١ المقتطف .
(٤) الإمام الرافعى ـ الدكتور البدرى ـ ص ٢٤٥ .
(٥) حياة الرافعى ـ محمد سعيد العريان ص ٢٢ .
(٦) سيرة الرافعى ـ أحمد محمد عيش ـ المقتطف العدد ٩١ .
(٧) مصطفى صادق الرافعى ـ الدكتور كمال نشأت ص ١٤ .
(٨) حياة الرافعى ـ العريان ـ ص٦٥ .
(٩) مصطفى صادق الرافعى ـ الدكتور كمال نشأت ـ ص٨٧ .
(١٠) مصطفى صادق الرافعى حياته وأدبه ـ حسنين حسن مخلوف ـ ص١٠٨ .
(١١) الإمام الرافعى ـ الدكتور البدرى ـ ص٤١١ .
(١٢) معركة فى الشعر الجاهلى ـ كتاب طه حسين فى معاركه الأدبية والفكرية .
(١٣) تحت راية القرآن ـ مصطفى صادق الرافعى . .
(١٤) أجزاء كتاب وحى القلم ـ مصطفى صادق الرافعى .

obeikandl.com